عينيه، يوميًا يدعك جسده مرتين باللوف والصابون المعطر، إزالة عرق سنوات طويلة ليس بالهين، لكن عليه إرضاء البك، ألا يعصى له أمرًا، سمع من يؤكد حدة غضبه إذا بدا رغم هدوئه البادى وصمته الدءوب، تركيزه كله على الجهاز الآن، لو غفل عنه يجفل.

المقهى محطة الراحة الوحيدة فى شقائه الطويل، هنا يتخفف من الشدة المتصلة، من استنفاره الدائم والمرتبط بتوقعه هجوم ما، حتى بعد انفراده بنفسه، دائمًا يتوقع الخطر، يعرف رواد المقهى فردًا، فردًا، يأمن بينهم، الغريب يظهر بسرعة، مطلع على أسرارهم، متتبع لأحوالهم، ليس كمخبر، لكن من موقع الصاحب الذى تتجدد إنسانيته باللقاء وتنجلى أحواله.

أحيانًا يلجأ بعضهم إليه لقضاء أمور صغيرة، نجح دائمًا من خلال صلاته الطيبة بشخصيات تولى حراستها، لم يردوا له طلبًا ولم يخيبوا له مسعى، انضباطه معروف، وسجل خدمته نظيف.

عند اقترابه من المقهى تسرى عنده حيوية، تنزاح هموم وتشب عاطفة تجاه الكافة، إنه ينتمى إلى هذا الجمع، تلك الألفة. والدعابات المتبادلة، وارتشافه الشاى الثقيل بمتعة، وجلوسه ساعات يتابع لعب الطاولة، لم يلق بالنرد قط. ربما بتأثير ما تلقاه من تحذيرات فى طفولته وصباه، المقهى باعث على الفساد، لكن جلوسه تلك الأوقات الآن منجى!

لم يضايقه الانتظار، اعتاده، لكم اقتفى آثار بعضهم حتى ولوجهم عمارات شاهقة أو سرايات فاخرة، عندئذ يبدأ كمونه فى الشارع، وحيدًا معرضًا لكل سوء، يسترجع خلال انفراده مكنون ذكرياته البعيدة، يتأمل